**التفسير الوظيفي للثقافة**

في البداية يكون من الأفضل النظر إلى الثقافة من أعلى، من أجل أن نفهم مظاهرها الأكثر تنوعا. يتعلق الأمر طبعا بهذا الكل حيث تندرج الأدوات والمواد الاستهلاكية والقوانين العضوية المنظمة لمختلف التجمعات الاجتماعية، والأفكار والفنون، والمعتقدات والعادات، سواء تصورناها ثقافة بسيطة جدا أو أكثر بدائية، أو على النقيض ثقافة معقدة ومتطورة جدا، فالأمر يتعلق بجهاز واسع، مادي من جهة وإنساني من جهة أخرى، وروحي من جهة ثالثة.

هذا الجهاز يمكن الإنسان من مواجه المشاكل الفعلية والمحددة التي تنطرح عليه. وهذه المشاكل ناتجة في الواقع عن كون الجسم الإنساني يخضع لمختلف الحاجات العضوية، وأنه يعيش في وسط يمثل حليفه الممتاز باعتبار أنه يقدم له المواد الأولية لعمله اليدوي، وفي الوقت نفسه خصمه اللدود بسبب القوى الغاشمة التي ينطوي عليها.

بهذا التوكيد الذي يبدو مبتذلا قليلا وبالتأكيد المتواضع جدا، ندرك أولا أن نظرية الثقافة يجب أن تستند على البيولوجيا. فالكائنات البشرية تكون نوعا حيوانيا، أنها خاضعة لشروط أولية ينبغي أن تلبى إذا أراد الأفراد العيش. إن الإنسان وهو مسلح بعدته من الأشياء الصناعية، وموهوبا بالقدرة على تشكيلها وتثمينها، قد خلق وسطا ثانويا. نستخلص من هذا نتيجة أو نتيجتين.

في المحل الأول، أنه من الجلي أن إشباع الحاجات الأولية أو العضوية للإنسان أو العرق، يكون الأمر الأدنى من الشروط التي تخضع لها كل ثقافة من الثقافات. فالمشكلات التي تطرحها الحاجة إلى الصحة يجب أن تحل. ويكون ذلك بخلق وسط جديد، ثانوي أو اصطناعي. هذا الوسط لن يكون شيئا آخر غير الثقافة ذاتها، يجب بلا انقطاع إعادة إنتاجه وصيانته والتحكم فيه. يخلق إذن ما يمكن أن نسميه بشكل عام مستوى حياة جديد، الذي يتوقف على المستوى الثقافي للمجتمع وعلى الوسط، وعلى المردود المجدي للجماعة، مستوى حياة ثقافية، يجب مع ذلك أن ينتج أن حاجات جديدة تظهر، وأن أوامر جديدة أو ضرورات جديدة تنطرح على السلوك الإنساني. من الجلي جدا أن التقليد الثقافي يجب أن ينتقل من جيل إلى جيل. وكل ثقافة يجب أن تكون لها مناهجها وآلياتها التربوية.

والنظام العام يجب أن يسود لأن التعاون ينتمي إلى جوهر كل عمل ثقافي. وفي كل مجتمع يجب أن تتوفر أجهزة موجهة لإقرار القانون والأخلاق والعرق. والأساس المادي للثقافة يجب أن يتجدد وأن يصان. وبالنتيجة في الثقافات الأكثر بدائية هناك أشكال من التنظيم الاقتصادي.

هكذا إذن، يجب على الإنسان قبل كل شيء أن يشبع كل حاجاته العضوية. يجب عليه أن يخلق أجهزة وأن يؤدي أفعالا من أجل طعامه، وتدفئته ومسكنه وملبسه، وأن يحتمي من الرياح ومن البرد ومن تقلبات الجو. يجب أن يحتمي وأن ينتظم ضد الأعداء والأخطار الخارجية، الطبيعة والإنسان والحيوانات. كل هذه المشكلات الأولية للفرد تحل بواسطة الأشياء المصنوعة، وبفضل تكون جماعات التعاون، وأيضا بفضل تطور المعرفة.

سنحاول تبيان أننا نستطيع ربط الحاجات الأولية وإشباعها الثقافي باشتقاق حاجات ثقافية جديدة، وأن هذه الحاجات الجديدة تفرض على الإنسان والمجتمع نمطا من الحتميات الثانوية. يمكن أن نميز إذن بين الأوامر الوسيلة المنحدرة من الأنشطة ذات الطبيعة الاقتصادية والمعيارية والتربوية والسياسية، والأوامر التكميلية المتمثلة في المعرفة والدين والسحر. أما بالنسبة للمناشط الفنية والترويجية فيمكن إرجاعها مباشرة لبعض الخصائص الفيزيولوجية لجسم الإنسان."

**مالينوفسكي**

Une théorie scientifique de la culture,

Points, Paris, 1944, P. 35-37.

**أ-التعرف بصاحب النص:**

ولد برونيسلاو كاسبار مالينوفسكي في كراكونيا (بولونيا) عام 1884، درس بادئ الأمر الرياضيات والفيزياء. بعد نيله الدكتوراه عام 1908 اتجه إلى الإتنولوجيا. أقام في بريطانيا العظمى عام 1910 وتابع دروسا في كلية الاقتصاد في لندن جعلته على اتصال مع ك.ج. سيليغمان وراد كليف براون و إ. وسترمارك. تحت تأثير هذا الأخير، ألف اعتمادا على المراجع المكتوبة المتوفرة كتابا عن العائلة لدى سكان أوستراليا الأوائل 1913 وبمساعدة سيليغمان، أنجز عام 1964 المرحلة الأولى من سلسلة ثلاث بعثات إتنوغرافية في غينيا الجديدة وأقام بضعة أشهر لدى المايلو في جنوب شرق الجزيرة، قبل أن يقوم بين 1915 و 1918 بأبحاث في أرخبيل التروبرياند. إن جوهر أعماله يقوم على حصيلة هذه المباحث حتى 1935 ويستند على تصور خاص للوظيفة التي اهتم مالينوفسكي حتى نهاية حياته بتوضيح وتحضير مبادئها في كتاباته النظرية. عام 1938 استقر في الولايات المتحدة حيث أشرف على مؤتمرات في جامعة يال، توفي في نيوهافن عام 1942.

بعد مرور عدة عقود على موت مالينوفسكي، قليلة هي ملامح أعماله التي تثير الكثير من الجدل. إن تعريفه لتقنية مكثفة لبحث ميداني وتطبيقه النموذجي لها على إتنوغرافيا المجتمعات التروبرياندية قد أمّنَ استمراريته، إذ أنهما يشكلان منعطفا قاطعا مع أعمال معاصريه. خلافا للآراء ذات الوحي النشوئي أو الانتشاري التي سادت على السياق العلمي لبداية القرن العشرين، يرى مالينوفسكي في التحليل التزامني لأنظمة العمل موضوع الأنتروبولوجيا الاجتماعية المفضل، داحضا صحة كل تاريخ تخميني. وهو يؤكد الضرورة المتهجية لإقامة هذا العلم على أساس اختباري ويحدد مبادئه. فالإقامة المطولة في المجتمع المدروس والتحكم باللغة المحلية هما أمران مطلوبان إذن كوسائل ضرورية لضبط تعقيد التراث الحي والفعال بشكل فاعل، في دراساته الأحادية لأعوام 1916 و1922 و1935 يظهر الوجه المتحفظ للوصف، والتعدد الغزير للمعطيات المقدمة في تفرعاتها وتغيراتها، والاهتمام بالتفصيل. قطيعة أسلوبية مع طبقات الطرائف الإتنوغرافية للعصر الخاصة بعلم المتحف. بل هو يبين أيضا جدة نظرية ما. ولأن اهتمام مالينوفسكي بعرض كثرة الوقائع المشاهدة في سياقها يستند إلى المسلمة بأن كل هذه الوقائع يجب أن تأخذ معنى من المقابلة فيما بينها، يقوم عمل الإتنوغرافي على بناء دائم يعمل على ربط المعطيات المنعزلة ببعضها البعض ودراسة تناغمها. وهذا ما عمل عليه على سبيل المثال؛ في دراسة الكولا عام 1924 حيث يبين أنه لا يمكن فهم مفاعيل المبادلات ما بين القبائل بمعزل عن مؤسسة الزعامة، ونمط تنظيم العمل، وتقنية التشغيل، والتصورات المرتبطة بالمعتقدات والأساطير، والقيم الاجتماعية المنسوبة إلى المهابة والوفرة، والمعطيات اللغوية المتعلقة بالتعازيم الطقوسية،...إلخ.

من خلال تحديد القوانين العامة التي تحكم الدمج في منظومات عناصر مختلفة ظاهريا، يبقى مالينوفسكي، من وراء الحالة التروبرياندية، تعريف خطة عرض لمقارنة المجتمعات وفهم الثقافة كظاهرة شاملة. بالأساس، إن هذه المسيرة مستوحاة مما يرى مالينوفسكي فيه الرهان العلمي الأكبر، والذي هو توضيح العلاقة بين التصرفات الاجتماعية الثقافية وحوافزها الفردية. تدل عبارة الثقافة، بحسب أحد المعاني الرئيسية التي يعطيها لها على الكلية الناجزة المشكلة من المؤسسات العديدة لمجتمع والتي تؤمِّن، بالإضافة إلى ضمان تكيف أفراده، تناقل أنماطه المكتسبة.

إنّ فكرة التحام عضوي للثقافة قادت مالينوفسكي إلى استخراج أهمية فكرة السياق للذهاب بها إلى الحد الأقصى، وتصور ترابط الوقائع الاجتماعية كتعبير عن ضرورتها الوظيفية. إذا لم يكتسب حدث إدراكه إلا في علاقاته المتعاضدة مع أحداث أخرى داخل كل ثقافي، فالاعتراف بوجود هذا الحدث هو التماس غائية تطبيقية له. حسب هذه النظرية المنفعية التي تفرض وظيفة ضرورية لحدث خاص – هي سبب وجود ونتيجة هذا الحدث في آن – ليست الغايات المتضمنة سوى حاجات. إن النظرية التي يقدمها مالينوفسكي عن الوظيفة تميز بين الحاجات الأولية، بيولوجية، شاملة وما قبل منطقية، والحاجات المشتقة الناتجة عن سيرورات التكيف، وتفرض نمط تحديد جديد للتصرفات البشرية تعرّف الثقافة كمكان حياتي ثانوي. في هذا المنظار يصبح تعليل وظيفة حدث اجتماعي هادفا لإظهار ما الذي يشبع إحدى هذه الحاجات بطريقة إلزامية من أجل بقاء الجماعة وتحديد الثقافة. من وجهة نظر غربية، ينطوي ذلك على استخراج عقلانيتها، كذلك بالنسبة للسحر الذي رغم عدم ارتكازه على معرفة علمية مثبتة، هو عقلاني من حيث أنه يمارس مفعولا منظما للانفعالية، ويشبع حاجة تفاؤل وانسجام. وتقوم وظيفته على اعتبار الثقافة بالرغم من عيوبها – واعتبار الأساطير، وشرائع التراث وحدوده، والدين – ضمانة استقرار المجموعات الاجتماعية[[1]](#footnote-2).

**ب-فهم النص**

**1- تفكيك النص**

- تقديم تعريف للثقافة لا يختلف عن تعريف تايلور، فالثقافة كل يشمل مظاهر عديدة تجمع بين الأدوات والمواد الاستهلاكية والأنظمة المختلفة والفنون والمعتقدات والعادات، إنها جهاز واسع مادي وإنساني وروحي.

- الثقافة تمكن الإنسان من مجابهة المشاكل التي يطرحها جسمه الذي يخضع لمختلف الحاجات العضوية، والوسط الطبيعي الذي يعيش فيه، والذي هو حليفه وعدوه في الوقت ذاته.

- ضرورة استناد نظرية الثقافة على البيولوجيا أي الإنسان ينبغي عليه أن يلبي بواسطة الثقافة حاجاته الأولية باعتباره نوعا حيوانيا.

- يترتب عن ذلك أن إشباع الحاجات الأولية أو العضوية يشكل الأمر الأدنى من الشروط التي تخضع لها كل ثقافة من الثقافات. ويكون ذلك بخلق وسط جديد ثانوي أو اصطناعي الذي هو الثقافة.

- التعاون والنظام يجب أن يسودا في كل مجتمع، والتنظيم الاقتصادي ضروري في كل الثقافات.

- على الإنسان أولا أن يشبع حاجاته الأولية من مأكل وملبس ومأوى.

- الحاجات الأولية تخلق حاجات جديدة تسمى الحاجات المشتقة. وهي تنقسم إلى نوعين: الحاجات الوسيلية المتعلقة بالأنشطة ذات الطبيعة الاقتصادية والمعيارية والتربوية والسياسية، والحاجات التكميلية المتمثلة في المعرفة والدين والسحر.

**2-الكلمات المفتاحية:** الثقافة، البيولوجيا، الحاجات الأولية، الحاجات المشتقة.

**3-الفكرة العامة:** نظرية الثقافة يجب أن تقوم على البيولوجيا بمعنى أن الثقافة وجدت لتلبية الحاجات الأولية للإنسان. وهذه هي وظيفتها.

**4-الإشكال:**على أي أساس يجب أنّ تقوم نظرية الثقافة؟

**جـ-المقالة**

1)- يعرف تايلور الثقافة بأنها ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والأعراف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بصفته عضوا في مجتمع. ونستخلص من هذا التعريف أن الثقافة إنسانية واجتماعية، وهي تشكل الموضوع المركزي بالنسبة للأنتروبولوجيا التي حاولت تفسير وجودها ونشأتها، وتمخض عن ذلك نظريات عدة، إحداها نظرية مالينوفسكي، فعلى أي أساس أقام نظريته في الثقافة؟

2- نظرية الثقافة يجب أن تقوم على أساس البيولوجيا بمعنى أن الثقافة وظيفتها هي تلبية الحاجات الأولية للإنسان.

3- ينطلق مالينوفسكي من تعريف الثقافة تعريفا لا يختلف كثيرا عن تعريف تايلور. فهي حسبه ذلك الكل الذي يضم الأدوات والمواد الاستهلاكية والقوانين العضوية المنظمة لمختلف التجمعات الاجتماعية، والأفكار والفنون والمعتقدات والعادات. فالأمر يتعلق بجهاز واسع مادي من جهة وإنساني من جهة أخرى، وروحي من جهة ثالثة. ثم يبرهن على أن للثقافة وظيفة باعتبار أن الجسم الإنساني يطرح مجموعة من المشاكل لأنه يخضع لمختلف الحاجات العضوية وهذه المشاكل يجب أن تحل بخلق وسط جديد هو الثقافة. فالإنسان يكون نوعا حيوانيا له حاجات عضوية يجب أن تلبى ولذلك فالثقافة تخلق وسطا ثانويا أو اصطناعيا. والحاجات تكون عضوية أولا تتمثل في الحاجة إلى الطعام والتدفئة والمسكن والملبس والحماية. ثم هناك حاجات مشتقة أي حاجات تخلقها الثقافة نفسها فإشباع الحاجات الأولية تفرز حاجات جديدة. وهذه الحاجات تكون وسيلية تتمثل في الأنشطة ذات الطبيعة الاقتصادية والمعيارية والتربوية والسياسية. والحاجات التكميلية المتمثلة في المعرفة والدين والسحر.

وعليه يمكن أن نضع النص في القضايا التالية:

\* الإنسان نوع حيواني له حاجات عضوية يجب أن تلبى وتشبع.

\* الثقافة وظيفتها إشباع تلك الحاجات.

إذن؛ النظرية الثقافية يجب أن تقوم على البيولوجيا.

4- وهكذا فالثقافة حسب مالينوفسكي تقوم على فكرة طبيعة إنسانية عالمية تترجم في حاجات كونية، على الثقافة بواسطة أعرافها وتقنياتها وأنظمتها أن تشبعها. ويبني هكذا بين النظام السوسيوثقافي والنظام السيكوفيزيولوجي علاقة سببية.

لكن ثمة انتقادات عدة وجهت إلى نظرية مالينوفسكي. إذا كان التفسير الوظيفي يوضح لنا أن إشباع الحاجات موجود في كل مكان، فإنه لا يستطيع تفسير الاختلافات التي نلاحظها بين النظم السوسيو-ثقافية للمجتمعات المختلفة، مثال ذلك الحاجة إلى الجنس التي يلبيها الزواج، فهي حاجة شائعة لدى الشعوب جميعها ولكن الوظيفية لا يمكنها أن تفسر أنواع الزواج المختلفة؛ إنها لا تفسر لماذا أن بعض المجتمعات تمارس هذا الشكل من الزواج بدلا من الآخر، لماذا ينتهج هذا المجتمع نظام تعدد الأزواج بدلا من تعدد الزوجات أو الزواج الأحادي.

كما تعاب الوظيفية بشدة على تركيزها إلى حد كبير على الاستقرار والثبات وتقليلها من أهمية الصراع و" التناقضات الداخلية والخلل الوظيفي، أي الظواهر الثقافية المرضية " فيما يقول "دوني كيش".

ونتيجة سيطرة فكرة التناغم والتوازن العضويين للمجتمعات البدائية، لا يعتقد الوظيفيون بالقدرة على التغيير النابع من داخل هذه المجتمعات ذاتها، فالتغيير لا يمكنه إلا أن يأتي من الخارج. إن هذا الموقف يقدم المبرر للاستعمار من خلال مفاهيم الاحتكاك الثقافي والتثاقف. وقد بين لكرك الارتباط بين الوظيفية والاستعمار فيما يسميه بوجود تواطؤ بين الوظيفية والإدارة الاستعمارية وهذا نتيجة تأييدها لسياسة الإدارة غير المباشرة للمستعمرات.

غير أن أهم الانتقادات التي توجه للوظيفية تتعلق بعلاقة التفسير الوظيفي بالتاريخ. فهذا التفسير يركز على الحاضر ويقول بعدم الرجوع إلى ماضي الثقافة التاريخي، وهذا مقبول بالنسبة للمجتمعات اللاكتابية. إن مشكلة التاريخ لا تطرح هنا، ولكن بمجرد الشروع في دراسة الجماعات الفلاحية في الهند أو في أوربا، أو البدو الرحل من العرب، يجد الأنتروبولوجيون أنفسهم ملزمين بمواجهة المشكلة: إذ أن عليهم أن يختاروا بين تجاهل الماضي المجتمعي، وبين أخذه بالاعتبار، إذا أرادوا أن يتناولوا بالدراسة حاضر هذه الجماعات المجتمعي.

وهكذا فإن التاريخ بعد أساسي وجوهري اليوم في الدراسات الأنتروبولوجية، خاصة إذا عرفنا أنها تتجه اليوم إلى مجتمعات محلية.

5)- لا شك في الإسهام الذي قدمته المدرسة الوظيفية بزعامة مالينوفسكي فيما يتعلق بنظرية الثقافة على المستوى النظري والمستوى المنهجي. فالثقافة بالفعل تلبي حاجات الإنسان الأولية والحاجات التي يخلقها التطور الثقافي ذاته. ولكن لا يجب أن نكتفي بهذا التفسير الوظيفي وحده الذي يعجز عن تفسير الاختلافات الثقافية، فهو في النهاية يبقى تفسيرا مقبولا في حدود معينة.

1. - بيار بونت وميشال إيزار، **مرجع سابق**، 799-801. [↑](#footnote-ref-2)